

## عصر التنوير ونشأة علم الاجتماع

إن العديد من المفكرين تبنا الاتجاه الذي ينادي بأن أن المفكر العربي المسلم "عبد الرحمان بن خلدون" قد سبق "أوغست كونت" إلى إنشاء وتطوير علم الاجتماع بأربعة قرون، وذلك من خلال مقدمته التي ناقش فيها طبائع العمران البشري وقوانين المجتمع الإنساني، وأنه عالج معظم القضايا والمشكلات التي تعالج الآن في إطار علم الاجتماع.

لكن عمل بن خلدون لم يكتب له الإتصال والإستمرار ذلك لأنه واكب سقوط الحضارة العربية والإسلامية وصعود الحضارة الغربية، إضافة ربما إلى الحواجز اللغوية والثقافية التي أخرجت وصول وتعرف المفكرين الغربيين على أعمال بن خلدون وإنجازته.

لذلك فإن نشأة علم الاجتماع في الغرب كانت مستقلة عن نشأته في الشرق، فلقد كانت نشأته في الغرب على يد الفرنسي "أوغست كونت".

وهذه النشأة مرتبطة أشد الارتباط بظروف التحول الإقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري التي مر بها المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت.

والواقع أن الحديث عن نشأة علم الاجتماع باتجاهاته الفكرية المختلفة لا بد أن ينطلق من عصر التنوير أو فلسفة التنوير، ذلك لأن القضايا التي أثارها هذه الفلسفة لعبت دورا كبيرا في تشكيل الإطار الفكري للعلم الاجتماعي الجديد سواء كان هذا الإطار متقبلا أو رافضا لهذه الأفكار.

لذلك سنوضح أولا ما هو عصر التنوير.

ماهية عصر التنوير:

إن مصطلح التنوير ظهر في أوروبا ويبدو أن "ريني ديكارت" (1596-1650) كان أول من استخدم مصطلح التنوير بالمعنى الحديث، فهو يتحدث مثلا عن النور الطبيعي، الذي يقصد به مجمل الحقائق التي يتوصل إليها الإنسان عن طريق استخدام العقل فقط.

كتب "إيمانويل كانط" سنة 1784 مقالا في مجلة "برلين الشهرية" تحت عنوان: ما هو التنوير؟ ومما قاله فيه: "التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه في حق نفسه، وهذا القصور هو بسبب عجزه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر.. ويقع الذنب في هذا القصور على الإنسان نفسه عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل، وإنما إلى العزم والشجاعة اللذين يحفزانه على استخدام عقله بغير توجيه من إنسان آخر.."

كما أن عصر التنوير يدعى بعصر العقلانية بمعنى نشوء حركة ثقافية تاريخية دعيت بالتنوير قامت بالدفاع عن العقل والعقلانية كمبادئ ووسائل لتأسيس النظام الشرعي للأخلاق والمعرفة بدلا من الدين.

لذلك فهناك من اعتبر أن ذلك العصر هو بداية ظهور الأفكار المتعلقة بتطبيق العلمانية.

إضافة إلى ذلك فقد اعتبر رواد هذه الحركة أن مهمتهم قيادة العالم إلى التطور والتحديث وترك التقاليد الدينية والثقافية القديمة والأفكار اللاعقلانية ضمن فترة سميت العصور المظلمة.

فما هي العصور المظلمة ؟

من المعروف تاريخيا أن موقف الكنيسة وآراء رجالها كان يمثل في العصور الوسطى الجهل والتخلف والخرافة، فقلد طلبوا من المسيحيين الإيمان والإذعان لهم ولآرائهم في تفسير الظواهر الكونية مدعين أن الكنيسة والدين يختص بتفسير هذه الظواهر، وإن الخروج عليها كفر والحاد، ويكون الجزاء الطرد من رحمة الكنيسة.

ولقد فتن بعض العلماء فيما يطالبهم رجال الكنيسة به والإيمان والإعتقاد بصحته، فوجدوا أن هذه الآراء والتفسيرات خرافة لا يقرها العقل وجاهل لا يقبله العلم، وظلام وتخلف، فأعلنوا ثورتهم على هذه الآراء وتلك الخرافات.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء وأفرادا من الشعب لم ينتبهوا إلى ضرورة التفرقة بين رأي رجال الكنيسة والدين، وبالتالي صار الدين بالنسبة لهم -كما عرفوه من رجال الكنيسة- مرادفا للتخلف والجهل والخرافة،

كما أصبح رجل الدين بالنسبة لهم داعيا إلى الجهل محاربا للعقل، وبالتالي تم تصوير الموقف على أنه صراع بين الدين والعلم، بين العقل والخرافة، بين التقدم والتخلف، وبين النور والظلام. فكان مصطلح التنوير هو المعبر عن نتيجة هذا الصراع، ومن الجدير بالذكر أن قصته بدأت بين الكنيسة والعلماء منذ أيام العالم "نيكولاس كوبرنيكس 1473-1543 م" الذي أعلن عن آرائه في الطبيعيات والفلك ومركز الكون معارضا آراء الكنيسة، وانسحب ذلك الموقف على الدين بمفهومه العام.

### نشأة علم الاجتماع

إن ظروف نشأة علم الاجتماع تصنف إلى ثلاث تطورات أساسية ترتبط ببعضها البعض، متفاعلة طوال فترات في التاريخ الأوروبي، وهي متداخلة غير منفصلة عن بعضها البعض، وأن تصنيفها عبر 03 تطورات هو قصد التبسيط وتوضيح الأمور.

أولا/ التطورات الاجتماعية الاقتصادية :

لقد ظهرت تناقضات اجتماعية نمت وتطورات في النظام الأوروبي الإقطاعي ابتداء من القرن 11 م أدت إلى صعود وظهور النظام الاجتماعي الاقتصادي الجديد المسمى الرأسمالية الصناعية.

وهو صراع بين الإيديولوجيا الراسخة للمجتمع الإقطاعي والتقدم العلمي والفلسفي الجديد.

بين الطبقات الإقطاعية والطبقة الجديدة النامية في قلب النظام القديم وهي البرجوازية، هذه الأخيرة التي طورت أسلوب مواجهتها الدينية (المذهب البروتستنتي) والفلسفية (فلسفة التنوير) والعلمية (التقدم العلمي والفني)

لذلك يمكن القول أن هذه التطورات الاجتماعية الاقتصادية تمثلت في ظهور نظام اجتماعي جديد وهو النظام الصناعي الرأسمالي وظهور المدينة الصناعية كمركز جديد للإنتاج بعدما كانت القرية هي المركز الأساسي للإنتاج في المجال الزراعي.

وبالتالي صارت المدينة مركز جذب لقوى العمل الموجودة في الريف، وصار البرجوازي هو المالك الجديد لوسائل الإنتاج الجديدة وهو طرف أول والطرف الثاني هو الطبقة العاملة الصناعية، وظهرت بالتالي الطبقة العاملة الصناعية المسماة البروليتاريا.

وظهرت طبقة تعيش في المدينة تباع قوة عملها في سوق العمل فصار المعروض من قوة العمل متجاوزا على الطلب عليها، فانخفضت الأجور وزادت ساعات العمل، وخرجت النساء والأطفال إلى البحث عن العمل... واتجهت الأفواج العاملة إلى التكسب في مناطق معينة المدينة وأطرافها مما أنتج الأحياء المتخلفة...

هذا مضافا إليه ظهور صراع بين البرجوازية والبروليتاريا نتيجة إستغلال الأولى للثانية من خلال تعظيم أرباحها بكل الطرق واستغلال جهود العمال رغبة في الثراء السريع.

ويمكن ذكر مجموعة المشكلات التي ظهرت فيمايلي :

1) مشكلات المدينة الصناعية كالفقر والإزدحام والمناطق المتخلفة...

2) مشكلة الطبقات الاجتماعية والتغير في التركيب الطبقي.

3) مشكلة الصراع بين الطبقات في النظام الجديد.

وقد أثارت هذه المشكلات النوعية الجديدة، الفكر الاجتماعي بتياراته المختلفة الرجعية والليبرالية والراديكالية، كل منها يحاول أن يطرح ما يراه حلول لمثل هذه المشكلات، مما يمكن أنها مهدت لنشأة علم الاجتماع بمختلف اتجاهاته النظرية والفكرية.

ثانيا/ التطورات السياسية :

لقد حاول الثوريون وضع مقولات التنوير موضع التنفيذ في سبيل تقويض النظم الاجتماعية الناجمة عن النظام الإقطاعي السابق.

مثل إدانة الأوضاع السياسية القديمة، وإعلان حقوق الإنسان وقضية الديمقراطية التي أثارت قضايا مثل طبيعة الملكية والعلاقة بين الطبقات الاجتماعية والإدارة والمركزية.

إضافة إلى فكرة المساواة الفردية، وأن القانون هو التعبير عن الإرادة العامة وللمواطن الحق في صياغته. كما أن الثورة الفرنسية كان لها أثر كبير في هذه التطورات كتحويل النظام من إمبراطوري ذا سلطة مطلقة إلى جمهوري قائم على المساواة.

ثالثاً/ التطورات الفكرية والفلسفية :

لقد استخدم المجتمع البرجوازي أسلحة فكرية وفلسفية في صراعه مع المجتمع الإقطاعي، فأولا حصلت المواجهة على أساس ديني حيث كانت الكنيسة تمثل قوة لا يستهان بها، فنشأ المذهب البروتستنتي في مواجهة الكنيسة الكاثوليكية، وانطلاقاً مما يسمى بفلسفة التنوير التي لعبت دوراً فكرياً هاماً ضد المجتمع الإقطاعي اللاهوتي، متمثلاً في الثورة البرجوازية الفرنسية.

ولقد ركزت فلسفة التنوير على نقاط أساسية أهمها:

- (1) عقلانية الإنسان وقدرته على الوعي بمصالحه.
- (2) الكمال الإنساني بمعنى أن الإنسان يمكن أن يصل إلى درجة الكمال.
- (3) مشروعية نقد كل شيء فليس هناك مقدسات تستعصي على النقد.
- (4) مشروعية الثورة والتغيير.

لكن مع كل ذلك ظهر تيار تمثل في التيار الرومانسي المحافظ الذي حاول التأكيد على نقيض القضايا التي أثارها فلسفة التنوير ونفي مشروعية الثورة الفرنسية.

في ظل كل هذه الظروف تبنى التيار الجديد كل من "أوغست كونت" و"دور كايم" اللذين أكدا على بعد الإستقرار الاجتماعي.

لذلك يمكن القول أن أوغست كونت أنشأ علم الاجتماع بهدف إصلاح المجتمع الذي هزته الفلسفات النقدية والحركات الثورية على أساس من البحث العلمي والتفكير الوضعي.